الضبط الببليوغرافي للإنتاج الفكري في الأندلس
على ضوء كتب التراجم الأندلسية

أ. مـــتاجر صورية
جامعة سيدي بلعباس

عرفت الأندلس في ظل الوجود العربي الإسلامي حركة ثقافية واسعة تجلت فيما خلفه أهلها من آثار علمية و أدبية و فلسفية. و لعل أبرز ما يثير انتباه الدارس ما كتبه الأندلسيون من مصنفات التراجم و الأعلام و السير الأندلسية، و لما تضمنته من فوائد تاريخية و فكرية و أدبية وسياسية و اجتماعية. كما كان لهذه الكتب فضل كبير في التعريف برجال الأندلس و أعلامها المفكرين.

لقد سارت الكتابة التاريخية الأندلسية المرتبطة بالتراجم والصلات، مغايرة لمثيلاتها في المشرق الاسلامي، وهو ما أعطى بلاد الأندلس نوعا من الخصوصية الفكرية في الحضارة الإسلامية. إن هذه التراجم البيبليوغرافية يمكن اعتبارها شكلا من أشكال معاجم العلماء، كانت تهدف إلى إضفاء عنصرين هامين:

- الترفيه عن النفس بذكر أخبار و تراجم العلماء، و تقدم العلم و المعرفة بفضلهم والتعريف بإنتاجهم الفكري و الثقافي، في بلد الأندلس الذي أمست حواضره تتساقط يوما بعد يوم تحت ضربات النصارى في الشمال.
- الاهتمام و التركيز على تخليد ذاكرة العلماء و إقصاء النخب السياسية من كتب التراجم و الصلات، يدل على سياسة التهميش التي عاشها العلماء في فترات معينة بالأندلس.

أولا: التعريف بكتب التراجم و الصلات خلال القرنين الرابع والسادس الهجريين:

1 – ابن الفرضي: حياته و آثاره:

هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، الأندلسي القرطبي، الحافظ، المعروف بابن الفرضي[1] كان فقيها عالما في فنون من العلم: الحديث و علم الرجال

و الأدب ولد بقرطبة سنة **351هـ/962م**، و نشأ فيها يتلقى العلم عن كبار مشايخها وعلمائها، و تولى قضاء بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني، و رحل من الأندلس إلى المشرق سنة **382هـ/993م**، فحج و أخذ عن العلماء، و سمع منهم، و يستوحى من بعض النصوص التي ذكرها ابن الفرضي أن رحلته إلى المشرق استغرقت حوالي ثلاث سنوات. ثم عاد إلى قرطبة، إلى أن قتله البربر يوم دخولها، في داره، في السادس من شوال سنة **403هـ/1013م**.

نشأ ابن الفرضي بقرطبة يتلقى عن علمائها و شيوخها أنواع العلوم، فكان يروي عن أبي جعفر أحمد بن عون الله، و القاضي أبي عبد الله بن مفرج، و خلف بن قاسم، و عباس بن أصبغ، و يحيى بن مالك بن عائذ، و عبد الله بن قاسم الثغري.

منهج الترتيب عند ابن الفرضي:

بدأ ابن الفرضي كتابه بمقدمة، ذكر فيها ما يتصل بكتابه: موضوعا، و منهج الترتيب، و العناصر التي يركز عليها في كل ترجمة، و موارده التي يستقي منها معلوماته،

و أورد ابن الفرضي نبذة مختصرة عن حكام الأندلس من (عهد الداخل إلى هشام المؤيد) [2]

بين ابن الفرضي في مقدمة كتابه أن مؤلفه يضم عددا كبيرا من فقهاء الأندلس وعلمائها، و رواتها، و أهل العلم منهم مرتبين على حروف المعجم [3]. و ضم كتابه تراجم لألف و ستمائة و واحد و خمسين رجلا(1651) من أعلام الأندلس و علمائها المبرزين.

و قد غطت تراجمه فترة ثلاثة قرون [4].

أما المنهج الذي سار عليه في ذكر أولئك العلماء فقد ذكرهم مرتبين حسب حروف المعجم بغض النظر عن أي اعتبار آخر، كالمكانة العلمية، أو المنزلة الاجتماعية، أو الترتيب الزمني.

لقد رتب ابن الفرضي مؤلفه حسب حروف الهجاء إذ بدأ بحرف الألف و انتهى بحرف الياء حسب الأبجدية المشرقية [5]، حيث ذكر تحت كل حرف أسماء العلماء من أهل الأندلس حسب الحرف الأول من الاسم فقط، و رتب الأعلام في كل باب وفقا لتقادم وفياتهم.

2- الحميدي: حياته و آثاره:

هو أبو عبد الله، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأزدي، الحميدي، الأندلسي، الميورقي: مؤرخ محدث، من أهل جزيرة ميورقة، و أصله من ربض الرصافة بقرطبة. ولد قبل سنة 420 هـ/1029م في جزيرة مايورقة، روى عن أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري و شهر بصحبته، و عن أبي العباس العذري، و أبي عمر بن عبد البر [6].

ترك الحميدي تآليف كثيرة في التفسير و التراجم و التاريخ و الأدب، و من أهم كتبه

و مصنفاته: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - تفسير غريب ما في الصحيحين - كتاب الأماني الصادقة.

منهج الترتيب عند الحميدي:

لقد كتب تراجمه معتمدا على الحفظ و قوة الذاكرة و غطت تراجمه حتى فترة 445هـ/1085 م[7]، أي تضمن الكتاب لمحة عن تاريخ الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي، حتى وفاة محمد بن إدريس بمالقة سنة 445هـ، و تضمنت تراجمه لـ 984 رجلا، و ثلاث نساء من أعلام الأندلس على اختلاف اتجاهاتهم العلمية و الفكرية و الأدبية.

تضمنت تراجمه أيضا بأعلام عرفوا بكناهم، أو ذكروا بالنسبة لصفاتهم.

3- ابن بشكوال: حياته و آثاره:

هو أبو القاسم، خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال بن يوسف بن راحة بن داكة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجي، الأنصاري، القرطبي الأندلسي[8] محدث، حافظ، مؤرخ، شاعر، مشارك في أنواع العلوم، ولد بقرطبة في ذي الحجة سنة 494هـ/1101م. عمر طويلا و توفي في شهر رمضان سنة 578هـ/1183م[9].

لابن بشكوال تصانيف كثيرة في التاريخ و الفقه و الحديث و الأخبار و التراجم، منها: كتاب الصلة، و هو ذيل لكتاب (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي و كتاب (الأسماء المبهمة)

منهج الترتيب عند ابن بشكوال:

وصلت تراجم ابن بشكوال إلى حدود سنة 564هـ/1169 م، قدم خلالها جرد كبير لعلماء الأندلس الذي بلغ عددهم(1544) من أعلام الأندلس منها 16 إمرأة و من خلال هذه التراجم فإن ابن بشكوال قدم لنا صورة حية عن واقع الحياة الثقافية في الأندلس، من خلال حضور رجال العلم في كل مناطق الأندلس، (الدراسة- التعليم- الإقامة) و ممارسة العلماء لمختلف المعارف العربية، الإسلامية المجمعة في وحدات كبرى (الحديث- القرآن- الفقه- علم الكلام)، و هذا ما بين القرنين الخامس و بداية السادس الهجريين، الحادي عشر- الثاني عشر الميلاديين[10].

4- الضبي: حياته و آثاره:

هو أبو جعفر، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، الأندلسي، مؤرخ من علماء الأندلس، ولد في مدينة بلس، رحل إلى سبتة، و مراكش، و بجاية ،حيث لقي عبد الحق الإشبيلي و بالإسكندرية لقي أبا الطاهر بن عوف، و أقام بمرسية إلى أن توفي بها سنة 599هـ/1203م.

مكنته إقامته الطويلة في مرسية، و هي مركز الثقافة و العلوم في شرق الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف من تقويم حسه العلمي، و تنمية رصيده الثقافي، و ترك لنا من المصنفات: (بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس)، و هو ذيل لكتاب (جذوة المقتبس) للحميدي.

منهج الترتيب عند الضبي:

أكمل الضبي مسيرة الحميدي في تذييل تراجمه، و لكنه استفاض كتابه بمصادر أخرى، حيث اشتملت كتابه على تراجم 1589 رجلا، و 12 امرأة من أعلام الأندلس، على اختلاف مستوياتهم و اختصاصاتهم و اتجاهاتهم العلمية و الفكرية. و من الملاحظات الأخرى حول منهج الترتيب أن كتابه تضمن خاصة أعلام ممن عرفوا بكناهم أو أجدادهم و ممن عرفوا بصفاتهم الغالبة عليهم.

الجدول التالي يوضح لنا أعداد المترجم لهم من الرجال و النساء في التراجم الأربعة المعتمد عليهم في هذه الدراسة :

جدول: أعداد المترجم لهم في التراجم الأربعة

المصدر	عدد الرجال	عدد النساء
إبن الفرضي	1651	02
الحميدي	981	03
إبن بشكوال	1528	16
الضبي	1589	12
المجموع	5749	33

من الواضح أن لكتب التراجم قيمة كبيرة في استخلاص المادة التاريخية و لا تخفى أهميتها في إعطاء صورة صادقة عن عصر ما في مستوياته الاجتماعية و الثقافية و الدينية، و في بعض الأحيان تمدنا بمعلومات فريدة عن

النواحي السياسية و الحضارية نفتقدها في مظانها الأصلية، و هذه القيمة التاريخية الكبيرة لكتب التراجم لم تغرب عن بال الباحثين والدارسين المحدثين. هذا الإنتاج البيوغرافي يعتبر أداة أساسية لضبط الشخص المترجم له، و معرفة شخصيته و إنتاجه الفكري و نشاطاته المختلفة، و هذا التوظيف "للمعجمي" يتماشى و هدف هذا الإنتاج الأدبي- التاريخي. كما أن الترتيب الأبجدي ما هو إلا تطوير لأسباب علمية للتصنيف الأصلي حسب العليقات، إلا أن الاهتمام بالرجال و السن قد تحكمت فيه في الأصل، محددات دينية "عملية"، متعلقة بالثقة في الرواة و سلسلة الإسناد و صحة الأحاديث. على ان المعطيات المتضمنة في كتب التراجم و الصلات أصبحت تستدعي توظيفا جديدا و تأويلا آخر إنها بحاجة إلى تحليل منهجي جديد. و هو الأمر الذي استدعى منا توظيفه في مجال العمل البيبليوغرافي و حصر الإنتاج الفكري و النقلي في الأندلس خلال القرنين الرابع و الخامس الهجريين/العاشر و الحادي عشر الميلاديين.

الإحالات

(1) ترجمة ابن الفرضي في :

ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (العتاد و شرح: صلاح الدين الهواري)، ط1 ، بيروت: المكتبة العصرية، 1423هـ/2003م ، ج1، ص ص212- 216 (رقم: 573)

Ben Cheneb (M) Huici, Miranda (A) « Ibn, Al-Faradi », in, encyclopédie de l'Islam, Novelle édition, Ciden, E.J.Brill, 1965, T3, p785.

(2) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ علماء الأندلس (تحقيق: صلاح الدين الهواري)، ط1 ، بيروت: المكتبة العصرية، 1427هـ/2006م ، ص ص13 - 19.

(3) - "هذا مكتب جمعت فيه فقهاء الأندلس و علمائهم و رواتهم، و أهل العناية منهم، مفتتحا على حروف المعجم" نفسه، ص13.

(4) Dominique, Urvoy, Le monde des ulémas, andalous du V/VIé au VII/XIIIe siècle- Genève, Librairie, Droz, 1978, p.10.

(5) هناك منهجان في ترتيب حروف الهجاء مثلما ذكرنا سابقا هما الأبجدية المشرقية، و الأبجدية المغربية، و تتفقان في ترتيب الحروف الأولى من الألف إلى الزاي ثم تختلفان، حيث تأتي الحروف حسب الأبجدية المشرقية مكملة لي:

س،ش،ص،ض،ط،ظ،ع،غ،ف،ق،ك،ل،م،ن،هـ،و،ي.

أما ترتيب أهل المغرب، فيجاء بعد حرف الزاي على النحو التالي: ط،ظ،ك،ل،م،ن،س،ع،غ،ف،ق،ص،ش،هـ،و،ي.

و قد أشار الباجي، و ابن عبد الملك المراكشي إلى أن المنهج المشرقي في ترتيب الحروف هو المعمول به عند أهل الأندلس زمنئذ، أنظر:

- أبو الوليد سليمان بن خلف، الباجي، التعديل و التجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح (تحقيق: أبو لبابة حسين)، الرياض: دار اللواء، 1406هـ، ج1، ص273.

(6) أنظر ترجمته في :

- الذهبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في رجال الأندلس، (ضبط وشرح: صلاح الدين الهواري)، ط1 ، بيروت: المكتبة العصرية، 1426هـ/2005م ، ص117، (رقم: 258).

(7) الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، (ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري) ط1 ، بيروت: المكتبة العصرية، 1425هـ/2004م، ج2، ص ص45- 85.

(8) ابن بشكوال، المصدر السابق، ص12.

(9) ابن خلكان، أبي العباس أحمد، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان (تحقيق: يوسف علي طويل، و مريم قاسم الطويل)، ط1 ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ/1999م ، ج2، ص203.

(10) Urvoy,Op.cit,pp.13-18.